من أدب العراق :

المرأة فى شعر الرصافى

للشيخ محمد رجب البيومي

حيا الله الشعر العربى ، فلقد آزر النهضة الشرقية أتم مؤازرة ، فأيقظ عيوناً نائمة ، وأسمع آذاناً موصدة ، وطاح بجبابرة قساة ، وأدوا الكرامة الإنسانية ، وأزهقوا العزة القومية ، كما أسدلوا على الشرق الصريع ستورا مظلمة مخيفة ، تنصب خلفها المكائد الدنيئة ، ويتجبر فى ليلها الحالك شياطين البغى والاستبداد

ولقد كان الرصافى رحمه الله فى طليعة هؤلاء المباقرة المجاهدين ، فقد اتخذ من يراعه القوى صارما بتارا ، تنقل به من معركة إلى معركة ، فهو فى ميدان السياسة يشن الغارة على السرطان الاستعمارى ، ويقف فى وجه الطاغوت التركى ؛ وهو فى ميدان الاجتماع يحث على التعليم المنتج ، ويدعو إلى الاخلاق الرفيعة ، كما تراه يتغنى بماضى الشرق الزاهر ، ويندب حاضره المتكود ، حتى أثمر جهاده أى إثمار ، فهب العالم العربى ينقب عن تراثه الضائع ، ويستعيد مجده المغصوب .

وسأحاول اليوم أن أكشف عن أثر الرصافى فى النهضة النسوية ، كما أبين شعوره نحو المرأة كانسان ناضج ، وكيف أوحت إليه من المعانى والأخيلة ما ارتسم واضحاً فى مرآة شعره . ولا عجب فقد وجدت لزاماً بعد أن وقفت على مجهوده الموفق فى هذا السبيل أن أتحدث عنه إلى القراء .

* * *

لم تكن حال المرأة فى العراق خيراً منها فى مصر ، بل كان الحجاب والجهل من لوازمها الأكيدة فى كلا القطرين ، فارتفعت الدعوة بتحريرها أولا فى ربوع النيل ، واحتدم الجدال بين الأنصار والخصوم ، فكانت معركة طاحنة تردد صداها فى ربوع العراق ، فنهض الرصافى والزهاوى للمطالبة بحق الفتاة ، وتصديا للهجوم العنيف بما يملكان من بيان ، فكانت المقالات الضافية ، والقصائد الرنانة ، تعبر عن آرائهما الجديدة فى جرأة وعنف ، وواصل الرصافى جهوده ، فتألب عليه الجمهور ، وتعقبه الحاكم التركى فى غدوه ورواحه ، وهو لا يفتأ يناضل عن حق اعتقده ويقوض أركاناً عتيدة يراها غير صالحة للبقاء !

كان قاسم أمين فى مصر صاحب الرأى الأول فى حركته التحريرية ، وكان الشعراء والمثقفون يسيرون وراءه فى كثير من التحفظ والاحتياط ، أما فى العراق فقد كان معروف وجميل بقومان بعبء قاسم فى حماسة يصل بها إلى الثورة والاندفاع ، ومن هنا كانت مكانتهما الاجتماعية فى بغداد أقوى من مكانة شوقى وحافظ ومطران فى مصر ، والفرق بين هذين وهؤلاء فرق ما بين الخطيب والمصفقين مع التسامح اليسير ! !

على أن الرصافى كان فى دعوته بعدد أساليبه الشعرية ، فلم يسر على نمط واحد فى قوافيه ، فتارة يعمد إلى العاطفة ، فيرسم لك صورة قاتمة لبائسة جاهلة ، قضت عمرها سجينة مغلولة ، حُرّم عليها العلم فهو أرفع من أن يهبط إلى مستواها الوضيع ، وأذلها الفقر فهى تئن تحت براثن الجوع ، ثم ضرب حولها الحصار المنيع فهى لا تسعى إلى طلب القوت . ويتساءل بعد ذلك : فى أى طريق تسير ؟ والعيون راصدة ، والفاقة قاتلة ، اسمعه يقول

لم أر بين الناس ذا مظلمه ... أحق بالرحمة من مسلمه
منقوصة حتى بمسيرانها ... محجوبة حتى عن المكرمه
قد جعلوا الجهل سوانا لها ... من كل ما يدعو إلى المأثمه
والعلم أعلى رتبة عندهم ... من أن تلقاه وأن تعلمه
ما تصنع المرأة محبوسة ... فى بيتها إن أصبحت معدمه ؟
ضاقت بها العيشة إذ دونها ... سدت جميع الطرق المملمه
كم فى بيوت القوم من حرة ... تبكى من البؤس بعينى أمه
قد لوحت نار الطوى وجهها ... وأعمل الفقر بها ميسمه
عاب عليها قومها ضنة ... أن تكسب القوت وأن تطعمه
من أى وجه تبتغى كسبها ... وطرقها بالجهل مستبهمه ؟

وتارة يعمد الشاعر إلى الأدلة الخطابية ، فيهول الغاية ، ويتفادى العاقبة حيث يستغنى بالحياء عن الحجاب ، وبالتهذيب والدراسة عن اللثام ، ثم يغضب أن يكون رجالنا ذئابا متنمرة ، ونساؤنا نعاجا مستكينة ، ويقيم البرهان على تأخر الشرق بتأخر فتياته ، فهن جزؤه المفلوج ، ونصفه الأشل ، فكيف يضمن البقاء

على حاله بدون تناسب ، والقاعدة غير ذلك ؟ إنه يقول :

شرف المليحة أن تكون أديبة ... وحجابها في الناس أن تتهذبا
والوجه إن كان الحياء نقابه ... أغنى فتاة الحي أن تتنقبا
واللؤم أجمع أن تكون نساؤنا ... مثل النعاج وأن تكون الأذؤبا
والفرق ليس بناهض إلا إذا ... أدنى الرجال من النساء وقربا
فإذا ادعيت تقدما لرجاله ... جاء التأخر للنساء مكذبا
من أين ينهض قائماً مَن نصفه ... يشكو السقام بفالج متوصبا
كيف البقاء له بدون تناسب ... والدهر خصص بالبقاء الأنسبا

ولا ينسى الشاعر في دعوته التحريرية ضغنه على المستعمرين ، فهو يرجع التوغل الاحتلالي إلى الأمهات وحدهن ، حيث كن إماء جاهلات ، فلم ينشئن أولادهن على العزة والكرامة ، فهانت نفوسهم ، وتحملوا جور الدخيل وتعسف الغريب ، وكأنه استعاد عصفورين بحجر واحد حين قال :

أضافوا عليهن الفضاء كأنما ... يغارون من نور به وهواء
ولو أنهم أبقوا لهن كرامة ... لكانوا بما أبقوا من الكرماء
ألم ترهم أمسوا عبيدا لأنهم ... على الذل شبوا في حجور إماء
وهان عليهم حين هانت نفوسهم ... تحمل جور الساسة الغرباء

وقد اشتهرت قصيدة معروف الثانية شهرة واسعة فتناقلتها الصحف المختلفة ، وسجلتها الكتب المدرسية مرات عديدة ، لأن ناظمها واضح صريح ، يذكر حجج الخصوم ويدفعها بالمنطق العقلي ، والدليل التاريخي . ولأمر ما تذكرني هذه القصيدة الرائعة بأخت لها نظمها حافظ رحمه الله في موضوعها الهام ، وكان لها من الشهرة ما للقصيدة الرصافي ، ولكن روح معروف أكثر اتقادا ، وتفكيره أوسع أفقا ، وإن اجتمعا معا في السلاسة والعذوبة . وكلا الشاعرين قد بدأ موضوعه بالدعوة إلى الفضيلة ، والتمدح بمكارم الأخلاق ، فقال الرصافي .

هي الأخلاق تنبت كالنبات ... إذا سقيت بماء المكرمات
تقوم إذا تعهدها المربي ... على ساق الفضيلة مثمرات
وتسمو للمكارم باتساق ... كما اتسقت أنابيب القناة
وتنعش من صميم المجد روحاً ... بأزهار لها متضوعات

وقال حافظ :

أنى لتطربني الخلال كريمة ... طرب الغريب بأوبة وتلاق
ويهزني ذكر المروءة والندى ... بين الشمائل هزة المشتاق
ما البابلية في صفاء مزاجها ... والشرب بين منافس وسباق
بالذ من خلق جميل طاهر ... قد مازجته سلامة الأذواق

ومضى معروف فشبه الأم بالمدرسة ، وقارن بين ابن المتعلمة وابن الجاهلة ، فشبه هذا بنبت الفلاة ، وذاك بزهر الرياض ؛ واستعان بخياله ، فجعل صدر الفتاة لوحاً بديعاً تتراءى فيه صور الحنان الدافق ، ثم داف إلى آراء المحافظين فدحضها في هدوء وبساطة ، وبين موقف الشريعة الإسلامية من المرأة وكيف أخطأ الجامدون فنسبوا إلى الدين ما ليس منه ، واستدل بعائشة أم المؤمنين وما كانت عليه من فصاحة وفقه ، ثم عاد يتساءل في تبرم

فما للأمهات جهلن حتى ... أنين بكل طياش الحصاة
حنون على الرضيع بغير علم ... فضاع حنو تلك المرضعات
ترى جهل الفتاة لها عفافاً ... كأن الجهل حصن للفتاة
وتحتقر الخلائل لاجرم ... فتؤذيهن أنواع الأذاة
ألن وأدوا البنات فقد قبرنا ... جميع نسائنا قبل الممات
حجبناهن عن طلب المعالي ... فمتن بجهلهن مهتكات
وقالوا إن معنى العلم شيء ... نضيق به صدور الثانيات
وقالوا شرعة الاسلام تقضي ... بتفضيل الدين على اللواتي
لقد كذبوا على الاسلام كذبا ... تزول الشم منه مزلزلات
ألم المؤمنين إليك نشكو ... مصيبتنا بجهل المؤمنات
فتلك مصيبة يا أم منها ... (تكاد نفس بالماء الفرات)

(البقية في العدد القادم)

محمد رجب البيومي

مجلس مديرية القليوبية

يطرح في المناقصة العامة توريد بطاطين صوف وجرادل صاج وتطلب كراسة المناقصة من المجلس بينها نظير مبلغ خمسين مليما على ورقة تمغة وآخر ميعاد لقبول العطاءات ظهر يوم ١٨ / ٥ / ١٩٤٨ وفتح المظاريف يوم ١٩ منه الساعة التاسعة أفرنكي صباحاً .

٩٢٥٢